# عوامل ذاتية وتاريخية ودينية

اللغة العربية من اعرق اللغات العالمية منبتا ، واعزها جانبا ، واقواها جلادة وابلغها عبارة واغزرها مادة وادقها تصويرا لما يقع تحت الحس وتعبيرا عما يجول فى النفس ، وذلك لمرونتها على الاشتقاق وقبولها للتهذيب وسعة صدرها للتعريب .

نزل القرآن الكريم بها ، فجعلها اكثر رسوخا ، واشد بنيانا ، واقوى استقرارا ، وبفضل القرآن صارت العربية ابعد اللغات مدى ، واوسعها افقا ، واقدرها على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الدائم الذي تعيشه الانسانية .

واستطاعت فى ظل عالمية الاسلام ان تتسع لتحيط بأبعد انطلاقات الفكر ، وترتفع حتى تصعد أرقى اختلاجات النفس فليس هناك معنى من المعاني ولا فكر من الافكار ولا عاطفة من العواطف ولا نظرية من النظريات تعجز اللغة العربية عن تصويره بالأحرف والكلمات تصويرا صحيحا حي المقاطع بارز القسمات واضح السمات ، هذه اللغة العريقة فتحت صدرها لتراث الانسانية الخالد ومعارف البشرية الراقية الرائقة كما اتسعت لمقومات الامة الاسلامية التي شرقت بالحضارة وغربت .

برزت فى اواسط القرن السادس الميلادي بفتة تتمتع بقوة لغة بالغة اشدها فما عرف التاريخ لها طفولة ، وما بدت الا لتكون لسان الحضارة والعلوم فانتقلت من شبه الجزيرة العربية الى الأمصار القصية بمفرداتها ومميزاتها .

ولقد اشترك مع اللغة العربية لغتان اخريان بكونهما لغتين عموميتين لافكار دينية وعقائدية ومذاهب سياسية انتشرت بين شعوب مختلفة ، وهاتان اللغتان هما : اللغة اليونانية واللغة اللاتينية . فقد كانت اللغة اللاتينية تستعمل من « كمبانيا » فى ايطاليا الجنوبية الى الجزر البريطانية،ومن نهر«الراين» الى جبل الاطلس .

واستعملت اليونانية من اقاصي « صقلية »الى «شاطىء دجلة» ومن البحر الاسود الى تخوم الحبشة. لكن ما اضيق ذلك الانتشار اذا ما قابلناه بانتشار العربية التي امتدت الى اسبانيا وافريقيا حتى خط الاستواء وجنوب آسيا وشمالها الى ما وراء بلاد التتار فقد استولت لغة العرب الكتابية على جميع انحاء الشرق الاسلامي .

لقد امست اليونانية واللاتينية فى صف اللغات الميتة منذ هبطت مدنيتاهما . فما الذي حفظ اللغة العربية حية بعد زوال مدنية العرب بقرون سبعة .

تشير الكاتبة « مي » الى ان الذي كان باعثا على قيام الحضارة العربية الاسلامية هو الذي ما زال حافظها الى اليوم وهو القرآن . لقد كان الاسلام يرمي الى التوحيد سواء فى الدين والسياسة واللغة ، والعربية لغة الاسلام .

لذا ستظل اللغة العربية حية ما دام الاسلام حيا، فمن الذي لا يعرف للقرآن فضله فى بقاء العربية حية ومن الذي يجهل ان اللغة العربية باقية ما بقي الاسلام ؟ (1) .

من ذا الذي لا يعترف بما ادته هذه اللغة من خدمة للانسانية وبانها كانت الصلة الوحيدة بين حضارات الماضي وحضارات اليوم . لقد اندثرت جميع اخواتها السامية من ارامية وكنعانية وكلدانية وسريانية واشورية وعبرانية قديمة وغيرها . فى حين بقيت هي

على رغم ما مر بها من عصور الركود . وما فتئت تفيض قوة وحيوية انها الحصن المنيع الذي يحمي من طغيان العامية ، وانها الرابطة النفسية القوية التي تجمع بين اهل البلاد المتباعدة وهي الصيغة الجميلة النابضة بالاحساس والتي نودعها مكنونات العقول والقلوب جيلا بعد جيل .

هذه اللغة وسعت مبادىء ومثلا سماوية لم تضق بها ولم تنكل عن احتمال اعبائها بل فى ظل حضارة الاسلام مرنت وتفاعلت ونمت نماءها الطبيعي المتطور من داخلها ، وهضمت خلاياها القوية كل ما قدم لها من خارج محيطها حتى تعملقت واتسعت آفاقها وانتشرت ظلالها وطوت فى دورانها القوي كل ما يقف فى طريق انبعاثها وتفوقها وكل ما يعرقل انطلاقها ويثقل اجنحتها عن التحليق ، واستطاعت بقوتها الذاتية ان تقشع سحب اللهجات الغامضة وتخرج من كل جولة ـ جالتها فى صراع ـ بغذاء مفيد ودماء جديدة وقدرة فائقة وطاقة خلاقة معطاءة .

هذه اللغة التي زادها القرآن دعما وتأصيلا اخذت تفرض سلطانها فى بيئات جديدة متفرقة فى اقطار الارض ، ولم تمض حقب طويلة حتى غدت لغة الشعوب من اواسط « آسيا » حتى جبال «البرانس» فى شمال « اسبانيا » ولم تستطع لغة من لغات هذه البيئات ان تثبت لها او تحول بينها وبين سيادتها وقد يكون من اسباب ذلك انها لغة القرآن . وقد يكون من اسبابه قوتها وجمالها الفني بحيث لم تستطع ان تقف لها لغة من لغات هذه البيئات . ومهما تكن الأسباب فانها اصبحت لغة قومية لامم وشعوب قد تختلف وتتباين فى اجناسها واصل نشأتها ولكنها تأتلف وتتحد فى عروبتها . فهي جميعا تنضوي تحت لوائها وتتلقن لسانها ، وتعب من قرآنها وشعرها وبيانها ، ولا تلبث ان تعيش لها وبها ، وتحيى فيها حياتها المعنوية الادبية والعقلية وهي ما تزال الى اليوم لغة شعوب الشرق العربي من الخليج الى المحيط الاطلسي تتوهج جذوتها وترسل ضوءها الى كل مكان حتى فى امريكا ، فقد تناول منها المهاجرون الى تلك الديار النائية اقباسا لا تزال تضيء فى مجلاتها وآثارها الادبية .

والعربية اجتازت آمادا واحقابا متطاولة من الزمن ، وقد المت بها خطوب كثيرة ولكنها وقفت فى طريقها كالصخرة فى مجرى السيل يلم بها ثم يزايلها . وليس معنى ذلك انها ظلت جامدة لا تتطور بل لقد تطورت اطوارا كثيرة ، بحكم ما التقت به من ثقافات . وقد حولت اليها وصبت فيها ثقافات الفرس واليونان والهند واسبانيا اللاتينية فوسعتها جميعا ، وتمثلتها تمثلا منقطع النظير ، وكأنما اصبحت نهرا كبيرا تتدافع اليه جداول شتى من الفكر والمعرفة ، وهو لا ينحرف ولا يغير وجهته بل يجري غزيرا زاخرا متدفقا مقتحما كل ما يصادفه من حواجز وسدود ، بين الامم والشعوب ، ولقد وحدت اللغة العربية بين هذه الشعوب والامم ، فاذا هي جميعها عالم عربي واحد مهما تدانت او تباعدت ومهما شرقت او غربت (2) .

لغة كريمة انضجها الزمان المتطاول فى البقاع الشاسعة من الجزيرة العربية واخرجتها الفطرة السليمة والاحساس المرهف والادراك النافذ . لغة كاملة معجبة تكاد تصور الفاظها مشاهد الطبيعة وتمثل كلماتها خطرات النفوس ، تكاد تتجلى معانيها فى اجراس الالفاظ ونبرات الحروف ، كأنما كلماتها خطرات الضمير ونبضات القلوب وبسمات الحياة ، فالمعاني المحسة والمعقولة مبنية فى الفاظ تدرك الفروق الدقيقة بين الاشياء المتشابهة فتضع للشبيه لفظا غير ما وضعته لشبيهه ادراكا للفرق الدقيق بينهما فاذا وضعت بعض اللغات للضرب مثلا كلمة واحدة وضعت العربية كلمات تختلف باختلاف آلة الضرب وموضعه من الجسم ، واذا دلت اللغات على صفات الوجه الانساني مثلا بكلمات مركبة لكل صفة دلت العربية على كل حلية فى الانسان وكل صفة فى عينيه وحاجبيه وانفه وفمه واسنانه وغيرها باسماء خاصة وليس هذا مقام التمثيل والتفصيل .

ثم انظر الى هذا الاحساس الدقيق المتمثل فى المفردات يتجلى فى التركيب مدهشا فكل كلمة لها فى الجملة مكان يحس بها المتكلم او تحس بها الكلمة نفسها فتعطي او تأخذ صوتا مكافئا لهذه الكلمة . فالكلمة الاصيلة لها اقوى الاصوات وهو الضم والاخريات لها الفتح والجر ، وما أرى هذا الا ضربا من الحياة فى الالفاظ والتركيب يبين عن ادق الاحساس والطفه .

واذا اشتملت اللغات على كلمات هي مادتها ففي اللغة العربية مادة وقوالب يستعملها صاحبها حين الحاجة . فيها مادة ووزن . فخذ المادة او اخلقها او استعرها من لغة اخرى ثم صبها فى قالب من قوالب الاسماء والافعال وصورها بالقوالب او الاوزان . فمن سمع فاعلا او مفعولا ، ادرك ان هذا الوزن فى حركاته وسكناته له معنى يلازمه فى المواد كلها . وبهذا

امتازت اللغة العربية واستبانت خصائصها حتى نفت عن نفسها كل كلمة أجنبية ما لم تخضع لأوزانها وقوانينها . للأسماء أوزان وللأفعال أوزان فما لا تزنه هذه الاوزان فهو أجنبي ، وبهذا بقيت على الدهر المتطاول خالصة نقية صحيحة قوية .

وقد امتحنت هذه اللغة العريقة واختبرها التاريخ الطويل فلم تعجز ولم تضق بكل ما ادركه الانسان من علم وثقفه من صناعة بل وسعت حضارة القرون المتطاولة والامم المختلفة غير كارهة ولا مكرهة، وقد اراد الله لها أن تكون لغة كتابه وترجمان وحيه وبلاغ رسالته فاشتملت على العالم الحسي والعقلي مصورا في كلمات وآيات . وجوزيت على هذا خلودا ما خلد للانسان عقل وقلب . وما استقام له احساس وادراك .

وتقلب الزمن وتوالت المحن وثارت الفتن وهي ثابتة ناضرة رائعة ثبات قوانين الله وروعة كواكبه محيت لغات وخلقت لغات وبدلت لغات وحرفت لغات والعربية هي العربية لم تمح ولم تغير ولم تبدل . ما آية الخلود بعد هذا ؟

ولم تبق هذه العربية لغة العرب وحدهم بل ثقفتها الامم الاخرى واولتها من العناية والحفاوة اكثر مما أولت لغاتها احيانا فصارت لغة العلوم والآداب للعرب وغير العرب حقبا طويلة ما بين اقصى المغرب واقصى المشرق . ولا تزال على تبدل الاحوال وتوالي الغير لغة ادب وعلم في الامم الاسلامية غير العربية وما تزال لغات هذه الامم مترعة بألفاظها . وما تزال تستمد العربية . وقد حوت على مر العصور ادبا لا تحويه لغة اخرى ادبا موطنه ما بين الصين الى بحر الظلمات وزمانه اربعة عشر قرنا ولا تعرف في آداب العالم قديمها وحديثها ادبا اتسعت به المواطن هذا الاتساع وامتدت به الاعصار هذا الامتداد .

فالعربية بأهلها وموطنها وخصائصها وآدابها وتاريخها العربية بقرآنها خالدة باقية على الخطوب والعصور لغة دين وعلم وادب وحضارة وانسانية (3) .

ولست اعرف في اللغات القديمة لغة بلغت مبلغ اللغة العربية من القوة والايد ومن السعة والانتشار ومن القدرة على السيطرة على العالم القديم في اكثر اجزائه.

وقد كانت قبل اللغة العربية لغات قديمة اخرى، انتشرت في الشرق وسيطرت على سياسته وادارته وثقافته ، ولكنها لم تبلغ في اى وقت من الاوقات اعماق الشعوب الشرقية ولم تستطع ان تغير من نفوس الشرقيين ولا ان تغير من لغاتهم وانما فرضت نفسها هذا الفرض السياسي المعروف فكانت لغة الحكام ولغة الادارة ولغة الثقافة الرسمية .

وظلت الشعوب مع ذلك تتكلم لغاتها الخاصة وتتوارث آدابها الخاصة . فالامة اليونانية فرضت لغتها على الشرق عشرة قرون . منذ عهد الاسكندر الى الفتوح العربية وكان الحكام في اول امرهم من اليونانيين وكانت ادارة البلاد الشرقية ولا سيما مصر والشام وما اليهما كانت الادارة فيها يونانية وكانت اللغة الادارية والسياسية هي اللغة اليونانية . وكانت لغة الثقافة الرسمية في المدارس وفي المعاهد وفي الاديرة ـ بعد انتشار المسيحية ـ هي اللغة اليونانية ولكن الشعوب التي كانت تسكن هذه البلاد الشرقية ظلت محتفظة بلغاتها الخاصة فكان المصريون محتفظين بلغتهم القبطية وكان السوريون واهل الجزيرة والعراق محتفظين بلغاتهم السامية والآرامية وما يتفرع منها ولم تستطع هذه اللغة اليونانية أن تؤثر في هذه اللغات ، ولا أن تحول الشعوب عن لغاتها بحال من الاحوال .

وجاء الرومان بعد اليونان وحاولوا فرض لغتهم ومع ذلك فقد ظلت الشعوب محافظة على لغاتها الموروثة وآدابها الموروثة وعلى تقاليدها كلها الى ان جاءت اللغة العربية بعد الفتح الاسلامي ودون ان يتخذ السلطان العربي اى قوة لفرض هذه اللغة ودون ان تتخذ الحكومات العربية على اختلافها اى اجراء لحمل الشعوب على ان تتكلم اللغة العربية . ننظر فاذا هذه اللغة العربية تنتشر شيئا فشيئا وبسرعة مدهشة ولا تلبث ان تصبح ، هي العامة لكل البلاد التي فتحها المسلمون في شرق الدولة الاسلامية وغربها .

في شرق الدولة الاسلامية في بلاد ايران وفي جزء من بلاد الهند . كل هذا القسم كان يتكلم اللغة العربية ويكتب بها ويحاول أن يغالب العرب عليها وفي المغرب وفي الشام وفي مصر وشمال افريقيا وفي الاندلس كذلك غلبت اللغة العربية كل اللغات التي كانت منتشرة في كل هذه البلاد واصبحت هي لغة الحديث وهي لغة الادارة وهي لغة الثقافة وهي لغة الدين .

فاللغة العربية قد انتشرت وحدها بقوتها الخاصة وبقوة الاسلام وقوة القرآن الكريم ، وبهذه القوة وحدها استطاعت اللغة العربية ان تكون لغة عالمية لاول مرة

فى التاريخ الانساني . لغة عالمية . بأوسع معاني هذه الكلمـــة .

ولاول مرة فى التاريخ نجد لغة تنتشر الى هذا الحد . فقد انتشرت اليونانية فى جميع البلاد الشرقية ولكنها لم تصل الى اعماق الشعوب ولم تغير لغـة من اللغات التي كانت قائمة فى تلك الايام فى بلاد الشرق ولكن اللغة العربية غلبت كل هذه اللغـات ، غلبتهـا وتعمقت شعوبها ووصلت الى اعماق الشعوب وحولت الالسنة عن اللغة القديمة الموروثة الى هـذه اللغـة نفسها ، لغة العرب ، لغة القـرآن ، والرمانيـون استطاعوا أن ينشروا لاتينيتهم فى الغرب الأوربي فى فرنسا وفى بريطانيـا وفى اسبانيـا وحاولـوا ان يجعلوها لغة منتشرة فى شمال افريقيا فلم يفلحـوا الا قليلا ولكن اللغة العربيـة استطاعـت أن تقهـر اليونانية فى الشرق وان تقهر اللغات الشعبية التـي كانت منتشرة فى هذه البلاد الشرقية وان تقهـر اللغة الفارسية نفسها ثم ان تقهر اللغة اللاتينيـة فى المغرب العربي وفى الاندلس وان تصبح هي اللغـة العالمية التي يتكلمها الناس فى الشرق والغرب جميعا.

هذه اللغة منذ تم لها الانتشار لم تكن لغة حديث فحسب ولكنها كانت لغة حديث ولغة سياسة ولغـة ادارة ولغة دين ، وكانت فى الوقت نفسه لغة التفكير والانتاج الادبي والعصري . وفى اقل من قرنين كانت هذه اللغة قد استطاعت ان تسيغ كل الثقافات التـي كانت معروفة فى العصور القديمة .

اساغت ثقافة اليونان على سعتها وصعوبتها وعلى عمقها واساغت فلسفتهم وعلومهم وطبهم وفنونهـم العملية ايضا . واساغت ثقافة الفرس وثقافة الهند . واساغت بعد ذلك الثقافات التي كانت متوارثة بيـن الامم السامية والثقافات التي نشأتعن التقاء الساميين بالامم المختلفة والتي نشأت عن تـوارث التـوراة والانجيل بين تلك الأمم المسيحية فى هـذه البـلاد الشرقية والمغربية . وبعد ذلك جـاءت المعجـزة الكبرى وهي ان هذه اللغة العربية قد انتشرت بطريقة مدهشة واساغت كل الثقافات بهذه الطريقة المدهشة ايضـا (4) .

فهي بلا شك افصح اللغات واكملها واتمها واعذبها نقل الناس اليها الكتب المنزلة مثل التوراة والانجيل والزبور وسائر كتب الانبياء من السريانية والعبرانية الى العربية . ونقلوا اليها ايضا ما قالته حكماء العجم باللغة الفارسية . وسائر ذلك من كتب الفلسفة والطب والنجوم والهندسة والحساب باللغات اليونانيـة او الهنديـة (5) .

ولهذا كله أسباب منها التاريخي ومنها الذاتـي ومنها الدينـي .

فالاسباب التاريخية ترجع الى كون اللغة العربية آخر لغة انفصلت عن اللغة الأم السامية الأمر الـذي مكنها من ان تأخذ ما فى السامية من مزايا وتتجنب الى حد بعيد كثيرا من مزالق مما لم يحصل للسريانية والعبرية اللتين سبقتا اللغة العربية فى الانفصال عن السامية الام .

ومما هو معروف مما تقدم ان اللغـة العربيـة تنتمي الى طائفة اللغات السامية فهي على حـد قول الكاتبة العربية « مي » ان اللغة العربية ثالث أصـول جوهرية ثلاثة ـ الأرامية والكنعانيـة والعربيـة ـ **فالارامية تشمل الكلدانية والسريانيـة والاشوريـة** « الميتة منذ زمن بعيد » وهي لغـة عاميـة يقال ان السيد المسيح كان يخاطب بها تلاميذه . **انشعبـت الكنعانية من العبرية والفينيقية** . فالعبرية لغة اليهود المقدسة ومع انها تختلف اليوم كثيرا عن العبرانيـة الاصلية ، فانها ما زالت مستعملة عندهم فى الطقوس الدينية . ولهجة من الفينيقية وهي البونيقية استعملت فى قرطاجنة وعلى شواطيء اسبانيا مدة طويلة .

اما العربية فتشمل العربية الفصحى ، ولهجات مختلفة تكلمتها القبائل القاطنة فى جنوب بلاد العرب وبلاد الحبشة وغيرها ، وهي اللغة التـي سعـدت بنصيب البقاء على حين ان اخواتها وبنات عمها دخان فى عالم النسيان منذ امد بعيد ، وبعض خصائصهـا اللغوية كجمع التكسير مثلا يميزها عن العبرية والارامية فيجعلها أوسع منهما معنى وأتم نظاما (6) .

اما السبب الذاتي : فهو نابع من صميم العربية ، من طبيعتها صوتا وحرفا او حركة وحرفا اذ ان لهـذه الطبيعة مجالا أرحب ، وشمولا أوسع ارتضته او ارتضاه لها الناطقون بها أعنـي بـه المجـاز والمـرادف والاشتقاق .

فالحرف العربي حرف مرن مطواع يمكن تركيبه على صور وهيئات تخرج منها الالفاظ والكلمات ، وقد نمت هذه المرونة والطواعية منذ نشأة اللغة .

والشكل وهو حرف صغير يتغير موضعـه من اللفظ فيحدث تلفظا جديدا يحمل معاني جديدة .

اما المجاز والاشتقاق والمرادف فانها منابع رئيسية لمرونة اللغة العربية كما انها ثروة رائعة من الجمال الذي تتحلى به ، فالمجاز وهو استخدام اللفظ لغير ما وضع له بسبب علاقة ذات قرينة من ان يفهم اللفظ بمعناه الاصلي ، وجاء ان المجاز عبارة عن تجوز الحقيقة . بحيث يأتي المتكلم باسم موضوع لمعنى فيختصره اما بان يجعله مفردا بعد ان كان مركبا او غير ذلك من وجوه الاختصار ، واما ان يذكر ما هو متعلق به او كان من سببه لفائدة .

والمجاز جنس يشتمل على انواع كثيرة كالاستعارة والمبالغة والاشارة والارواق ، والتمثيل والتشبيه وغير ذلك مما عدل فيه عن الحقيقة الموضوعة للمعنى المراد (7) .

هذا المجاز قد فسح للعربية ميدانا خصبا لا يحد بسهولة ، فلو قلت ان محمدا يلقي الدرر ادرك السامع مرادك وهو أن محمدا يتكلم كلاما فصيحا بليغا جميلا ولو قلت : لقد جادت السماء ولبست الارض حلة قشيبة ادرك السامع ان مطرا قد هطل ونباتا ظهر . ومثل قول جرير .

اذا نزل السماء بأرض قوم
رعيناه مذان كانوا غضابا

يريد اذا نزل مطر السماء رعينا ما ينبته هذا المطر النازل (8) .

والاشتقاق : هو اخذ كلمة من اخرى تتشابه فيها بعض الحروف ، فاذا تشابهت الحروف الاصلية اسفرت عن معاني قد تكون قريبة وقد تكون بعيدة عن المعنى الاصلي وهذا الاشتقاق قد اضاف الى اللغة العربية ما اضافه المجاز فلفظة « بصر » التي تفيد النظر والرؤية وكذلك الخبرة والدراية لك ان تشتق منها فوق قواعد الاشتقاق افعالا واسماء لكل منها معناها الخاص فانك تشتق منها « بصر » باصره . مبصر . بصير . متبصر . مستبصر .

وكل هذه اسماء تختلف فيما بينها اختلافا معنويا واضحا . اما الافعال فهي لا تقل عن هذه الاسماء كثرة وتنوعا ، فلك ان تقول : يبصر . يتبصر . يتباصر . يستبصر . ولكل منها معنى يختلف اختلافا عن معنى الفعل الآخر . فالأول ينظر ويرى ، والثاني يستعلم ويتحقق ، والثالث يدعي الرؤية او الخبرة ، والرابع يحاول النظر او الادراك . فلو احصينا ما اشتققنا من اللفظة « بصر » لوجدناها عشرة الفاظ ، لها معان عشر والفاظ عشرة بل لعل المعاني في حقيقتها تفوق العشرة .

وهذا كله غير تصريف الفعل الذي لم نذكره لانه ليس من الاشتقاق وهو التصريف الذي يتناول اثنتي عشر صيغة موزعة على الضمائر .

والمرادف : وهو اللفظ الذي يؤدي نفس المعنى ويختلف عن مرادفه في النطق والحرف اختلافا قد يكون كليا وهو باب واسع من اوسع ابواب اللغة العربية . وليس ادل على ذلك مما صنعه بعض المؤلفين القدامى مثل عبد الرحمن بن عيسى الهمداني المتوفى عام 320 هـ في كتابه « الالفاظ الكتابية » والذي جعله في ثلاثمائة وستين بابا . جمع في كل باب من الالفاظ المختلفة حرفا المتقاربة معنى ما يعسر حصره ، وعلى سبيل المثال نذكر باب حسن المنظر : منظر حسن . نضير . بهيج . بهي . رائع . زاهر . رائق . قسيم . وسيم . مرونق . ففي هذه الالفاظ المترادفة وصفنا منظرا حسنا .

اما جمال العربية فانه ناجم عن الدقة والجرس وتجانس التركيب والاستعارة والتجنيس والطباق والاعجاز والالتفات والتمام والاستطراد وحسن التضمين وتجاهل العارف والكناية والتشبيه والمساواة والاشارة والارداف والتتبع وائتلاف اللفظ مع المعنى وائتلاف اللفظ مع الوزن ، وائتلاف المعنى مع الوزن وائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت والتوشيح والترشيح والتوشيع والايغال والاحتراس والموازبة والترديد والتعطف والتفويف والتسهيم والتورية والاستخدام والتغاير والتسميط والمماثلة والتجزئة والتسجيع والترصيع والتصريع والتشطير والتعليل والتطريز والعكس والتبديل والاغراق والغلو والاطراد والتوهيم والتكميل والمناسبة والتفريغ والتكرار والايداع والاستعانة والموازنة والتذييل والمشاكلة والتهذيب والتأذيب والحل والانسجام والعقد والتعليق والادماج والازدواج والاتساع والمجاز والايجاز والتوليد والتنكيب والاتفاق والالتزام والتدبيج والتمزيج والاستقصاء والبسط والايضاح والتشكيك والعفوان والحيدة والانتقال والفرائد والنزاهة والافتنان والمراجعة والمقارنة والمناقضة والانفصال والايذاع والابهام والسلب والايجاب وغير ذلك كثير مما عنى به علماء البلاغة وقد يكون من السهل ايراد الشواهد على هذه العناوين الجمالية في اللغة العربية وقد يكون من الاسهل تحديد هذه الصفات التي ترد تحت الوصف

لشيء واحد مثل « منظر حسن » ولكن الصعوبة تكمن في تصوير الصفات للسامع تصويرا ماديا يمسك بالانامل . ونعل هذا التصوير المادي ليس من متطلبات التدليل على جمال اللغة ـ اية لغة كانت ـ والقول في جمال لغة ما عند اهل تلك اللغة يعتمد مقاييس ذوقية ومادية تنظمها مشاعر وقواعد ، فالمشاعر هي وليدة الحس الذي يقرع العقل والقواعد هي الادوات المصنوعة لأجزاء القياس ونحن حين نطبق هذه المقاييس على جمال لغة العرب نخرج بنتائج مدهشة رائعة .

قال الله تعالى في كتابه العزيز : « والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى وهو بالافق الاعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين او ادنى » .

جرس ساحر آخاذ في تقطيع لفظي عجيب يصوران موضوعا جليلا ببراعة معجزة بدات الآية الكريمة بالقسم بالنجم الذي كان بعض العرب يحلونه محل الاله ولكن القسم ليس بالاله المزعوم فحسب بل به حين يهوي ويهبط من عليائه التي خدعت بعض الناس فجعلوا منه الها غير الله . فهذا السقوط الذي يجرح الالوهية والذي اورده القرآن الكريم مع القسم له ابعاد معنوية خارقة . ثم نفت الآية الكريمة عن الرسول العربي صفة الضلال التي اتهمه بها الجاحدون اولئك الذين بلغ الضلال بهم ان عبدوا النجم الذي ليست له مناعة ضد السقوط ، ومضت الآية الكريمة في تنزيه القرآن الذي نزل على الرسول الامين عن الهوى والعاطفة ، وقال فيه انه وحي من الله الخالق القوي الذي امر الرسول بحمل رسالة القرآن فصدع بالأمر ونهض يبشر قومه بهداه وينذرهم في تنكرهم لرشاده . ولم يكن هذا الوحي في ذلك يدعو الى التشكك او التشكيك بل كان والرسول الكريم اقرب ما يكون الى ربه سبحانه وتعالى . انه كان على بعد ما بين طرفي القوس والعرب يعرفون قصر المسافة بينهما حق المعرفة لان القوس تعيش بين ايديهم وتصحبهم طول الوقت .

هكذا استطاعت اللغة العربية ان تقسم بالمقدس جهلا وضلالة وتجرح تقديسه وتنفي عن الرسول مزاعم المشركين وتسمي الوحي وتصف قرب النبي في حالة الوحي وتبين ان الدعوة ليست من هوى وعاطفة انسان بل ارادة ربانية . كل هذه المعاني صورتها اللغة العربية تصويرا هو من جمال القوة في الذروة (9) .

واذا اردنا المزيد من التدليل على جمال العربية فالشواهد ميسورة في كل ضرب من ضروب الكلام في الشعر والنثر والحكمة والخطابة . قال المتنبي يصف جيش سيف الدولة الحمداني :

خميس يشوق الأرض والغرب زحفه
وفي اذن الجوزاء منه زمام

تجمع فيه كل لسن وامة
فما تفهم الحداث الا التراجم

وقال البحتري يصف الربيع :

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا
من الحسن حتى كاد ان يتكلما

وقد نبه النيروز في غسق الدجى
اوائل ورد كن بالامس نوما

يفتحها قطر الندى فكانما
يبث حديثا كان قبل مكتما

هاتان صورتان من صور التعبير الشعري : في الاولى تجد الفخامة والقوة والسبك ، وفي الثانية تجد الرقة والعذوبة والرخامة .

صورت اللغة في الفاظهما ما اراده الشاعران او صور الشاعران في كل منهما ما اراداه تصويرا تمازجت فيه الالفاظ بالمعنى فكانت روعة التعبير في الصورتين اللتين رسمتا موضوعين مختلفين ، احدهما الجيش وضخامته وجلبته ، والثاني : الربيع ونعومته ورقته وبهاه (10) .

ولا بأس من ايراد شاهدين آخرين وليكونا في موضوع واحد هو الرثاء اجاد فيه كل من الشاعرين اللذين رسما صورة للحزن على الفقيد ومكانته .

قال ابو تمام يرثي محمد بن حميد الطوسي ، وقد قتل في معركة فر فيها جنده وبقي هو في وجه عدوه « بابك الخرمي » :

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة
تقوم مقام النصر ان فاته النصر

وقد كان فوت الموت سهلا فرده
اليه الحفاظ المر والخلق الوعر

فاثبت في مستنقع الموت رجله
وقال لها من تحت اخمصك الحشر .

كأن بني نبهان يوم وفاته
نجوم سماء خر من بينها البدر

**اما جرير فقد رثى زوجته فقال :**

لولا الحياء لهاجني استعبار
ولزرت قبرك والحبيب يزار

ولهت قلبي اذ علتني كبرة
وذوو التمائم من بنيك صغار

واذا سريت رايت نارك نورت
وجها اغر يزينه الاسفار

كان الخليط هم الخليط فاصبحوا
متبدلين وبالديار ديار

لا شك انك حين سمعت ابيات ابى تمام فى رثاء الطوسي استشعرت الاباء والجلد والأنفة والشجاعة وحين سمعت رثاء جرير زوجته احسست بالاسى واللوعة والالم ، وكلتا الصورتين الشعريتين لمصور واحد هو الرثاء ، وان استخدمت الريشة من قبل رسامين هما الشاعران الرائيان ..

ومن جمال اللغة العربية الذاتي غناها بالالفاظ والكلمات التي تتشابه فى اللفظ وتختلف فى المعنى .

ومن ذلك ما جاء فى المقامة الحلبية للحريري .

اما السبب الديني فهو فى القرآن العظيم واسلوبه المعجز . واللغة العربية بفضل القرآن الكريم صارت ابعد اللغات مدى وابلغها عبارة واغزرها مادة واقواها جلادة وادقها تصويرا لما يقع تحت الحس وتعبيرا عما يجول فى النفس تتسع لتحيط بأبعد انطلاقات الفكر وتصعد حتى تصل أرقى اختلاجات النفس والضمير واسعة سعة السماء،عميقة عمق البحر(11).

قال م. فنتيجوا مؤلف كتاب «المعجزة العربية» : ان سرعة انتشار اللغة العربية ترجع الى الثمار المادية والروحية التي جنتها من الاسلام أكثر منها الى القرار الذي اتخذه الأمويون بجعل العربية اجبارية فى الوثائق الرسمية . وخلال القرن الثاني الهجري بدأ انحلال مراكز الثقافة اليونانية فى الشرق الادنى وتمخض هذا الانحلال عن اكبر فوضى فى اللغات والاديان فقد بدأت شعوب عريقة فى الحضارة كالمصريين والهنود تتحلل من تراثها الخاص لتعتنق على اثر احتكاكها بالعرب معتقداتهم واعرافهم وعوائدهم . ان العربية أمست فى فارس اللغة الرسمية واتخذها الشعراء انفسهم أداة لصياغة القريض فى حين ظلت اللهجة البهلوية مستعملة فى الجبل ، وقد استمر نفوذ العربية فى القرون التالية بل صارت العنصر الجوهري فى الأوردية التي هي لغة الثقافة عند الهندوس والتي يعتبر نصف مرداتها تقريبا من اصل عربي (12) .

قال جورج رفوار : لقد ظل نفوذ اتباع محمد لأزباء لم يتغير، ففي نواحي افريقيا وآسيا التي دخلوها من المغرب الى الهند تغلغل ذلك النفوذ فى الاعماق الى الابد ولم يستطع فاتحون جدد استقصاء دين العرب ولغتهم (13) .

ان اللغة العربية التي بلغت مبلغا كبيرا من المرونة والثروة فى العهد الجاهلي كأداة للتخاطب وكمصهر لصفل التعبير عن ادق الاحساسات وارق العواطف ادركت فى القرن الرابع الهجري فى عنفوان العصر العباسي أوج كمالها .

وقد وصف زكي مبارك روعة النثر الفني العربي فى القرن الرابع الهجري ، ووصف فيكتور بيرار اللغة العربية فى ذلك العصر بأنها اغنى وابسط واقوى وارق وامتن واكثر اللهجات الانسانية مرونة ، فهي كنز يزخر بالمفاتن ويفيض بسحر الخيال وعجيب المجاز رقيق الحاشية مهذب الجوانب ، رائع التصوير ، واعجب ما فى الامر – وهو شيء لا نظير له عند الشعوب الاخرى– ان البدو كانوا هم سدنة هذه الذخائر وجهابذة النثر العربي جبلة وطبعا ومنهم استمد كل الشعراء تراثهم اللغوي وعبقريتهم فى القريض (14) .

هذا وقد عربت اهم المصنفات اليونانية فى عهد الخلفاء العباسيين حيث انكب العرب والعلماء على دراسة الاداب الاجنبية بحماس شديد وقد خضعت العربية لمقتضيات الاصلاح الجديد ، فانتشرت فى مجموع انحاء آسيا ، واستأصلت نهائيا اللهجات القديمة وقضت على اللاتينية فى شبه الجزيرة الايبرية ( اسبانيا والاندلس ) .

ان نفوذ اللغة العربية اصبح بعيد المدى حتى ان جانبا من اوربا الجنوبية أيقن بنفوذ العربية واوضح ( جورج ريفوار ) ان رجال الكنيسة – فى أوربا الجنوبية اضطروا الى تعريب مجموعاتهم القانونية لتسهيل قراءتها فى الكنائس الاسبانية ، وان « جان سيفيل » وجد نفسه مضطرا الى ان يحرر بالعربية معارض الكتب المقدسة ليفهمها الناس .

اما فى فرنسا فقد اكد ( جوستاف لوبون ) فى كتابه « حضارة العرب » ان للعربية آثارا مهمة فى فرنسا نفسها . وقد لاحظ المؤرخ الفرنسي «سديو» عن حق ان لهجة ناحيتي : أوفيرني وليموزان زاخرة بالالفاظ العربية ، وان الاعلام تتسم فى كل مكان بالطابع العربي .

وكان من الطبيعي ان يزود العرب كلا من فرنسا وايطاليا ـ فى القرن الثامن الميلادي ـ بمعظم مصطلحاتها البحرية على انها تركت اثرها فى مصطلحات الجيش والادارة والصيد والعلوم وغيرها . وقد لوحظ نفس التأثير فى صقلية .

ومما يجدر ذكره ان أول اتجاهات أوربا من الاقتباس العربي كان فى الميدان العلمي ، ولقد قال المستشرق « ماسينيون » ان المنهاج العلمي قد انطلق اول ما انطلق باللغة العربية ، ومن خلال العربية فى الحضارة الاوربية ، وان اللغة العربية اداة خالصة لنقل بدائع الفكر فى الميدان الدولي ، وان استمرار حياة اللغة العربية دوليا لهو العنصر الجوهري للسلام بين الامم .

وقد اوضح « جوستاف لوبون » ان العربية اصبحت اللغة العالمية فى جميع الاقطار التي دخلها العرب حيث خلفت تماما اللهجات التي كانت مستعملة فى تلك البلاد كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية.

وقال المستشرق ماسينيون ان العربية بقيمتها الجدلية والنفسية والصوفية استطاعت ان تضفي سربال الفتوة على التفكير الغربي .

ومما لا يسوغ انكاره ان الكثير من المصطلحات فى انواع الفنون المختلفة ـ فى اوربا ـ تستمد عناصرها من اللغة العربية مثل الكحول والاكسير والجبر . وقد ذكر ليفي بروفنصال ، ان الاسبان استمدوا معظم اسماء الرياحين والأزهار من اللغة العربية ومن جبال البرانس انتقلت مصطلحات العلوم الطبيعية الى فرنسا مثل البرقوق والياسمين والقطن والزعفران ومجموعة مصطلحات الراي تقريبا ـ كما قال الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله فى كتابه «معطيات الحضارة» ـ هي من اصل عربي كما تحمل الحلى فى اسبانيا اسماء عربية ويتجلى نفس التأثير فى الهندسة المعمارية وبالجملة فقد استمدت اسبانيا وبواسطتها امريكا اللاتينية من اللغة العربية الشيء الكثير من مقوماتها اللغوية ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا .

وقد لاحظ عالم ايطالي كبير ان معظم التعابير العربية التي تفلغلت بكيفية مدهشة فى لغة روما لم تنتقل عن طريق التوسع الاستعماري ولكن بفضل اشعاع الاسلام الثقافي (15) .

وان اللغة العربية هي بلا شك اداة الفكر . وهي تعتمد على المناخ الفكري لاداء المعاني الحضارية اذ ان الحضارة والمدنية والثقافة لا بد لها من الاداة ، وان المقومات الثقافية لاى امة من الامم تتمثل فى اللغة التي تستوعب الفاظها ومدلولاتها وكلماتها والعبارات المستعملة فيها القيم العليا وقضايا المعرفة .

وهذه القيم وهذه القضايا هي التي توجه الافراد وتحدد علاقة بعضهم ببعض كما تحدد علاقتهم بالمجتمع سواء المجتمع القومي او المجتمع الانساني .

ان حضارتنا العربية وليدة اللغة العربية ، واللغة العربية وليدة الحضارة العربية ، والحضارة العربية هدفت الى الخير والمعرفة وافادت الانسانية .

## المصـــــــادر


1 ـــ المقتطف ـ المجلد الثاني والخمسون ، ص 399 مقال الكاتبة «مى»
2 ـــ مجلة « العربي » ـ العدد 58 مقال الدكتور شوقي ضيف ، الكويت
3 ـــ كتاب « مهد العرب » للدكتور عبد الوهاب عزام ، سلسلة اقرأ ، رقـــم : 40 ، القاهرة .
4 ـــ مجلة « المغرب » ـ العدد الخامس ، وزارة الشئون الخارجية ، محاضرة الدكتور طه حسين ، ص 62 ، المغرب .
5 ـــ كتاب « الزينة » للشيخ الرازي ـ الجزء الاول ، ص 61 طبـــع دار الكتـــاب العربي بمصر .
6 ـــ مجلة المقتطف ـ المجلد 52 ، ص 393 .
7 ـــ كتاب تحرير التحبير ـ لابي الاصبغ المصري ، ص 457 ، طبع المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، القاهرة .
8 ـــ نفـــس المصـــدر الســـابـــق .
9 ـــ مجلة اللسان العربي ـ العدد الرابع رقم 24 ، المغرب الربـاط ، المكتب الدائم للتعريب ، 1386 هـ ، 1966م
10 ـــ نفـــس المصـــدر الســـابـــق ، ص 25 .
11 ـــ انظر مقالنا بمجلد اللسان العربي ـ العدد الرابـــع ، ص 40 ، المغـــرب الرباط ، 1386 هـ ، 1966 م .
12 ـــ راجع مقدمة اللسان العربي ـ العدد الثالث ، ص 3 .
13 ـــ المرجـــع الســـابـــق ، ص 3 .
14 ـــ المصـــدر نفســـه ، ص 4 .
15 ـــ انظر العدد الرابع من مجلة اللسان العربي ، ص 6 المغرب الرباط.